التطور فى الدين

حول مقالات فتحى غانم فى صباح الخير

للدكتور مصطفى كمال وصفى الرفاعى

لا أريد أن أقول إن فتحى غانم قد دل على عقيدة ضعيفة فيما يكتبه هذه الأيام فى مجلة صباح الخير داعيا إلى « عدم جمود الدين وقصوره » . ولكنى أقول إنه يركب بنا مركبا صعبا ويخاطر بنا فى آفاق غير مأمونة باتجاهه الذى يدعو إليه ، دون أن يحدده أو يضبط مراميه منه .

بدأ فتحى كتاباته فى هذا الموضوع بهذه الدعوة مجردة : أن الدين غير جامد . لا يجب الوقوف به موقف الجمود ، بل يجب تطويره وتطهيره من الخزعبلات والأوهام . . وأن التواكل والتسليم والتصديق بالغيبيات أمر يجب أن يتبرأ الدين منه .

رد عليه الشيخ أحمد الشرباصى قائلا أن هذا الكلام فى هذا المجال يقلق أمن الدين واستقراره ، وأنه يجب عدم فتح مناقشات ومجادلات لاداعى لها إلا بلبلة الأفكار .

أجابه فتحى غانم إجابة قاسية . قال له أنت تفكر بروح الموظف فى إدارة الأمن العام . وتجادل من قد يعلمون خيراً منك (؟) وإننا نريد تحرير الدين من أفكار الجهلة المتزمتين (؟) وعاد إلى ترديد عباراته السالفة عن ضرورة تحرير الدين من التواكل والتسليم والتصديق بالغيبيات . وأن التصديق أمر يبرأ منه الدين .

كتبت للشيخ أحمد قلت له لاترد عليه . لأنه لم يكتب ما يرد عليه بل فقد أعصابه فحسب . وعند ذلك يكون الرد مهاترة تتنزه عنها . وكتبت لفتحى غانم أقول له إن الناس فى عقائدهم يعانون الشكوك والريب (وخليهم متسلبطين) ومجلة صباح الخير (المجلة الوردية الدلوعة) يقرأها كثيرون من هذا النوع . وربما أساء بعض هؤلاء المتسلبطون فهم قولك فينقطع ما بقى بينهم وبين الله من حبل واهن . . . ربما كان أدق من خيط العنكبوت . أفأنت — كما قلت لفتحى — تقبل تحمل هذه المسئولية ؟ وقلت له إن بعض مسائل الدين لا تقبل تطويراً — كالعقائد وأصول الدين وما ورد فى القرآن والسنة — والبعض الآخر يقبل ذلك بضوابط من

الاجتهاد . وأن الأمة بحمد الله فتح الله عليها فى طرح أصول الدين فتحاً مبيناً بحيث ألقت الدين من حالق وانطلقت فى مجالات التهديم والتخريب . . . فأى تطور تريد بعد ذلك ؟

ولما كان فتحى ينشر لمن يشاء ويغفل من يشاء بيده الأمر وهو على كل شىء قدير ، فقد وضع خطابات المعجبين والمتلهفين أمثالنا أمامه ومد أنامله واختار أحد هذه الردود فكان خطابا من أحد أنصار التطور يخبره فيه بأن جاجارين وآخر (لا أذكر اسمه . هو أمريكى) قد صعدا إلى القمر وأن إمام مسجد بلدهم يقول إن هذا غير معقول ويستعيذ بالله منه . ولقد سر الأستاذ فتحى سروراً عظيما بنجابة هذا القارىء وعد إجابته نموذجاً كاملا للتفكير السليم المستقيم وقال هكذا يتبين أن الناس يريدون التطور بالدين . وإنه يجب محاربة المتجرين باسم الدين المفسدين فيه .

* * *

ماذا نقول فى هذا ؟

لا أتجنى على فتحى غانم . ولا أتهمه زوراً فى مقاصده .

حقيقة هو ملوم فى دعوته للتخلص من التسليم بالغيب . لأن الإيمان هو تسليم بالغيب . وكذلك دل على أنه لا يدرك معنى الصوفية . ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أقول أن فتحى غانم ، كأى فرد يعيش فى مجتمعنا هذه الأيام ، انعكست فى ذهنه ذبذبات مشكلة هائلة كبرى تسيطر على الأفكار الآن وهى مشكلة التطور ومشكلة القديم والحديث .

فتحى غانم معذور إذ تتحرك فى ذهنه هذه المشكلة ، ويشعر شعوراً قلقاً ، ويقول نريد تطوراً .

وأظن أن الشعور الذى اعتمل فى صدر فتحى كان غامضا مبهماً . وكانت صيحته كأنها صيحة استنجاد ومطالبة . ولا أعتقد أن لديه برنامجاً معيناً أو فكرة يريد إبداؤها . لقد ظننت فى البداية أن كلمته هذه مقدمة صغرى لمقدمة أكبر ، ثم يبدى بعد ذلك أفكاراً منسقة مبنية على استخلاص النتائج من الأسباب . ولكنى لاحظت من عباراته أنه ليس لديه شىء جوهرى ولا فكرة واضحة محددة ، وأن مقدمته الصغرى كانت خلاصته الكبرى وانتهى .

ولكنه فتح لنا باب مشكلة حقيقية ربما لا يعلم هو كم هى دقيقة .

مشكلة التطور هى مشكلة صراع فكرى شامل جائح فى المجتمع العربى الآن . مشكلة كل بيت . مشكلة كل شاب . مشكلة كل خلية من خلايا هذا المجتمع .

أنا أكتب هنا من سوريا . وأقرر أنها كذلك مشكلة حيوية هنا .

وأنا أؤيد فتحى غانم فى وجوب التطور . بل أقرر أنه ربما كان فتحى غانم حسن النية جداً غيوراً على الدين إذ صاح هذه الصيحة ولكنه قد لا يكون متشربا تماما بالروح الدينية ولذلك اختلطت أفكاره ببعض الفلسفات الضارة التى تفسد الكثير على عقول من درسوها ، وتطل برأسها رغما عنهم عند مامتحدثون عن الدين .

* * *

من الغريب ونحن الشعب العريق أنه ليست لنا تقاليد محددة . كل ماورثناه عن الآباء فى شئوننا الخاصة كمناسبات زواجنا وعزائنا وعلاقاتنا ببعضنا طرحناه . وأصبحت كل زيجة تجربة جديدة لتقليعة من نوع جديد . وكل جنازة وعزاء يبدو فيها شيئا لم يكن موجوداً من قبل . وأصبح الإبن يقول لأبيه « أنت لا تفهم ظروفنا » والأب ينكص أمام ابنه ويقول ربما ؟ وفى كل مكان نرى أصحاب العمائم واللفائف والمسابح متشبكين مع تلامذة فرويد وداروين وكارل ماركس . . . هؤلاء يقولون قديم وهؤلاء يقولون جديد .

معاملاتنا أصبحت فيها استفهامات . التأمين حرام ؟ الفوائد حرام . . . وودائع البريد كذلك ؟

وناهيك عن عالم المرأة والملاهى ... البلاجات والسفور والتبرج . . . السينما . الغناء . . . حرام أم حلال ؟

من قال حلال ، ينظر شذرا لمن قال حرام ويقول له « افهم أولا روح دينك ... إن الإسلام دين ودنيا ... قل من حرم زينة الله ؟ ولا تنس نصيبك من الدنيا . . . إن الله يحب أن يرى نعمة عبده عليه . . . » وكيف إن وكيف كان ؟ وهكذا ترى هذه الخنافة فى كل حارة وكل شارع ... حتى أصبحت ظاهرة اجتماعية هامة عامة .

* * *

نحن حيال هذه الظاهرة لا يجب أن ننكر الواقع .

لا يجب أن نترك الأفكار المنحرفة النابعة عن قلوب غافلة أعماها حب الدنيا

واللهو والتمتع تتبجح باسم الدين . وتنسب ما تدعو إليه من فسق وانحلال إلى الدين ونور الشريعة المباركة .

وكذلك لا يجب أن نهمل إعادة النظر فى الجديد من شئوننا فى ضوء الدين . لأن ذلك يؤدى إلى بسط ظل الدين على هذا الجديد . فلا يجب أن نتركه وكأنه خارج عنه . هذا هو الجمود الذى ننتزه عنه .

إن تحريم الحلال . كتحليل الحرام . كلاهما خروج على الدين .

***

إن فى الجمهورية العربية المتحدة الآن وعى شديد قوى نحو هذا التجديد . وقد قامت طائفة من رجال هذه الأمة ومسئوليها يدعون إلى تطوير الدين عملا وإلى إعادة النظر فى كل ما طرأ بعد قفل باب الاجتهاد .

فى مصر قام وزير الأوقاف — والله أدعو له من قلبى وربما لم أره فى حياتى — بتشكيل لجان وهيئات القصد منها إعادة بحث الأحكام الشرعية من جديد بما يطابق روح العصر . واظن تفرع عن هذه الهيئة . موسوعة للفقه الإسلامى . ولجنة لإحياء التراث الإسلامى وغير ذلك . ويشترك فى ذلك عدد من الشخصيات الإسلامية الكبيرة . كالسيد على السيد رئيس مجلس الدولة السابق وعبد الحكيم فراج وكيل مجلس الدولة وعلى على منصور المستشار فى القضاء وغيرهم كثيرون . وقامت كذلك جمعية كبيرة لهذا الغرض أظن يتبنى فكرتها كذلك فهمى السيد مستشار رئيس الجمهورية ووصفى أباظة وكيل مجلس الدولة وآخرين . وفى سوريا تقوم مثل هذه الحركة بكل وضوح . ومن الظاهرين فيها أستاذنا السيد محمد مكى الكتانى ، والمنتصر الكتانى ومعروف الدواليبى ومحمد المبارك ومصطفى الزرقا وغيرهم وكلهم من العلماء الفحول .

***

طبعا لا فتحى غانم ولا أى مسلم يقول بأن نتطور فى شئون العقائد . وهو نفسه يؤكد ذلك . فلا إله إلا الله محمد رسول الله ، لا تطور فيها .

وكذلك ما ورد فى الكتاب والسنة الصحيحة .

أما تطبيق أحكام الدين على حالتنا الحاضرة فهو الذى يحتاج للتطوير .

فمن ناحية جدت أمور جديدة يجب أن نعلم حكم الله فيها . ضربنا فيها مثلا عقد التأمين فإن كانت حراما تركناه ، وإن كانت حلالا أقبلنا عليه .

ومن ناحية أخرى حدث فعلا أن غادرنا نطاق الديه فى كثير من الأمور . يجب أن نبحث سبيل العدوة السريعة إلى مجال الدين بدون أن تحدث رجة أو زعزعة فى الأوضاع الحالية ، نرجع رجوعا سريعا ولكن بتدريج متطور قدر الطاقة .

كذلك عوائدنا ومعاملاتنا ، يجب أن نعود فيها للدين عودا يلائم روح الزمان لقد كتبت وزارة الأوقاف حينا من الدهر كتيبات فى هذا الموضوع ، وهو أمر لا بأس به . ولكن يجب أن يكون الأمر شاملا وأن تبدوا الغيره واضحة . شكلوا الجمعيات لهذا الغرض . امنعوا نساءكم من التبرج والسفور . اعتنوا بتربية اولادكم وأنفسكم قدموا مقترحاتكم لمجلة الإسلام والتصوف افعلوا الخير لعلكم تفلحون .

وفقنا إليه جميعا — بما فينا فتحى غانم — للخير والرشاد .